جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

دراسات أولية : المرحلة الثالثة

المادة : الأدب الأندلسي

عنوان المحاضرة:(النثر في العهد الأموي)

استاذ المادة: أ. د فائزة رضا شاهين

١٤٤٥هـ **٢٠٢٤**

النثر في الأندلس

النثر في العهد الأموي:

١- النثر في عهد الولاية والامارة (٩٢- ٣٠٠ هـ)

جرى الباحثون على تقسيم النثر إلى قسمين : نثر فني خالص ونثر تأليفي، وتعد الخطابة من ابرز موضوعات النثر الفني، كذلك الرسائل :وهي صنفان رسائل ديوانية ورسائل الاخوية، والرسائل الديوانية جرت بين الولاة وقادتهم وهي تشمل على توجيهات ادارية واوامر السياسية او عسكرية ويندرج ضمن هذه الرسائل كتب المبايعة، وكتب التولية ، وعقود الأمان، وكتب الصلح ، وتوقيعات الادبية ،والوصايا والمحاورات .

كانت الحاجة إلى النثر شديدة اقتضاها اتصال حياة الفاتحين بالحروب واقترانها بالجهاد الإسلامي والنزاعات والثورات الداخلية ، اقتضت توفر النثر بأنماطه المختلفة وفي مقدمتها الخطب والدعوات الحماسية لاستنفار المقاتلين فضلا عن الخطب الدينية . ولم تصل من تلك الفترة الا نصوص يسيرة تقترن ببعض الأحداث. ان النصوص التي دارت في مجال المراسلات السياسية في عهد الولاة لا تعد نثراً اندلسياً لأنها كانت شديدة الصلة بالمشرق، أن المراسلات في عهد الأمارة فهي التي تبادلها امراء الدولة الأموية مع قادتهم وعمالهم وولاة المدن تبدو لها كانت بشكل عام تتجه الى الايجاز وهي سمة من سمات البلاغة وكانت تنسجم مع الذوق العام للكتابة حينذاك. طلب الأمير عبد الرحمن الداخل من كاتبه امية بن يزيد ان يكتب الى بعض عماله كتابا يلومه على ما بدر منه من التقصير فلما اطال أمية في الكتابة امر بتمزيق الكتاب . وكتب بيده : ((اما بعد، فإن يكن التقصير منك مقدماً فعند الاكتفاء يكون لك مؤخراً. وقد علمت بما قدمت فاعتمد على ايهما احببت)) ، وكل هذه النصوص التي تتصل بعهدي الإمارة والخلافة تتسم بالأيجاز. اما كتب الصلح فانها تخرج عن قاعدة الايجاز بالضرورات التي تقتضي التفصيلات التي ينص عليها ذلك الكتاب ومن ذلك كتاب عبد العزيز بن موسى بن نصير إلى تدُمير بن غندرس : ((بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدُمير بن غندرس، إنه نزل على الصلح وأن له عهد الله وذمته وذمة نبيه (ص) الأ يقدم له ولا لأحد من اصحابه ولا يؤخر ولا ينزع عن ملكه، وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم، ولا يكره على دينهم ولا تحرق كنائسهم ولا ينزع عن ملكه ما تعبد ونصح وأدى الذي اشترطنا عليه). وفي تتمة الكتب شروط الصلح في رجب سنة ٩٤ من الهجرة . وواضح أن الكتاب يحذو حذو كتاب المسلمين الأوائل بالاستهلال بالبسملة وتقديم اسم المرسل على المرسل اليه. وتذييل الكتاب بتاريخ تحريره وهو من اقدم النصوص في النثر الأندلسي . وقد وصلت الينا صور متنوعة من النثر الفني منها ما يطلق عليه (أدب الوصايا) فقد وجه الأمير الحكم الربضي١٨٠هـ -٢٦٠ه) الى ابنه عبد الرحمن حين شعر بدنو أجله وصية قال :((أني قد وطدت لك الدنيا ، وذللت لك الأعداء، واقمت أود الخلافة، وامنت لك الخلاف والمنازعة، فاجر على ما نهجت لك من طريقة ، واعلم أن أولى الأمور بك وأوجبها عليك،حفظ اهلك ثم عشيرتك. ثم الذين يلونهم من مواليك...))... ويحفل كتاب اخبار المجموعة) بأمثلة نثرية

للأمير محمد منها محاورات بينه وبين كتابه ووزرائه ومكاتبات في شؤون الدولة. ويحفظ كتاب (البيان (المغرب) لابن عذاري رسائل وخطب كتبها ملوك بني أمية في الاندلس منها خطبة لعبد الرحمن بن الحكم (الأوسط) قالها بعد وفاة أبيه : ((الحمد لله الذي جعل الموت حتماً من قضائه. وعزماً من أمره. وأجرى الأمور على مشيئته فاستأثر بالملكوت والبقاء . واذل خلقه فما لهم نجاة من الفناء. تبارك اسمه . وتعالى جده وصلى الله على نبيه ورسوله وسلم تسليماً .....) ومما يلاحظ كثرة الكتاب الذين استخدموا في دواوين الأمراء فاحتفظت المصادر بنصوص متنوعة لهم ومن هؤلاء الكتاب : خالد بن يزيد، وامية بن يزيد وفطيس بن عيسى وخطاب بن يزيد وحجاج المغيلي، ومحمد بن سعيد الزجالي، وابنه عبد الله بن محمد بن سعيد الزجالي، وعبد الله بن محمد بن أبي عبدة، وموسى بن زياد. وتبدو أهمية الكتابة والكاتب في المجتمع الأندلسي من وصف ابن سعيد لكاتب الرسائل ((وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس واشرف اسمائه الكاتب وبهذه السمة يخصه من يعظمه، واهل الاندلس كثيروا الانتقاد على صاحب هذه السمة ولا يكادون يغفلون عن عثراته)) لحظه ويصف ابن سعيد كيف تتسلط الألسن على الكاتب الذي يلحن أو يحظىء.

خطبة طارق بن زياد:

تناول المصادر التاريخية والأدبية ذكر هذه الخطبة وذلك لاقترانها بحدث مهم وهو فتح الأندلس ولاتصالها بشخصية من الشخصيات البارزة في التاريخ الإسلامي ، فإذا صحت فهي من اقدم نص نثري. ومن الغريب أنها لم ترد في المصادر التاريخ المبكرة في فتح الأندلس ، باستثناء كتاب (استفتاح الأندلس (لعبد الملك بن حبيب (٢٣٨هـ) ووردت في كتاب (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة (٢٧٦هـ) ، وكتاب (وفيات الاعيان) لابن خلكان (١٨١ هـ) ونقل عنه المقري في كتابه (نفح الطيب) ... ونبدأ بالنص الأول وقد ورد في كتاب (استفتاح الأندلس) وهو الخطبة التي يمكن نسبتها لطارق بن زياد قال: فلما بلغ طارقا" دنوه منه قام أصحابه. فحمد الله وأثنى عليه ثم حض الناس على الجهاد، ورغبهم في الشهادة ثم قال ايها الناس اين المفر والبحر من ورائكم، والعدو أمامكم فليس لكم والله الا الصدق والصبر ألا وأني صادم الى طاغيتهم بنفسي لا أقصر حتى اخالطه أو أقتل (دونه)). اما النص الثاني فقد ورد في رواية ان خلكان والمقري وقد وقف عدد من الباحثين بالدراسة لنص الخطبة التي يتسرب اليها الشك. ومن أهم عوامل الشك عدم ذكر للمصادر المتقدمة لها ، فضلاً عن عوامل الرواية هنالك عوامل تاريخية واخرى فنية وهذه العوامل تجعنا نشك في رواية ابن خلكان التي نقل عنها المقري وهي :١- الدلالة التاريخية والفكرية أ – عدم تلائم المعاني التي جاءت في الخطبة مع الروح الاسلامية ، فليس في الخطبة اشادة بدوافع الفتح والحث على طلب الشهادة ، ليس من المعقول أن يغري القائد جنده بالمغريات المادية ب - الحداثة عهد طارق بالإسلام لا تتيح له مثل هذه البلاغة والبراعة في خطبته، إذ دخل في خدمة ولاة المسلمين وكان صغير السن حينما عهد اليه موسى بهذه المهمة ج- ترد في الخطبة معلومات تاريخية مغلوطة فقد جاءت كلمة (يونان) لتحقيق السجع والمعتاد ان يذكر (الرومان) لو (القوط) أو (العلوج) أو (العجم) أو(المشركون والكفار). د- ما جاء من ان الوليد بن عبد الملك قد اختارهم (عربانا) و الصواب تاريخيا ان الذي اختارهم هو موسى بن نصير الا اذا كان المقصود ذلك مجازاً.

٢-الأدلة الفنية : أ- ان الخطبة لا تنسجم في أسلوبها وخصائصها الفنية ان يكون طارق صاحبها لطولها من الناحية ولاعتمادها على السجع المتكلف من ناحية أخرى فالصفة التي تتصف بها خطب القرن الأول الهجري هي الايجاز والتركيز ب- يفترض في الخطبة أن تتضمن اقتباسات قرانية على نحو ما هو معروف في خصائص النثر في القرن الأول الهجري.واليك جزءاً من النص الذي ورد في رواية ابن خلكان وهو : ((وقد بلغكم ما انشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان. الرافلات في الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان . والمقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك امير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم لملوك الجزيرة أصهاراً واختانا....)). وخلاصة القول لا يمكن الكار خطبة لقائد يلقيها امام جيشه قبل المعركة ولكننا نرجح النص الأول الذي أورده عبد الملك بن حبيب ، فهو اقرب الى خصائص نثر القرن الأول ، وان النص الثاني الذي أورده ابن خلكان والروايات المتأخرة بعيدة عن خصائص نثر القرن الأول ، وقد فنده الدارسون بالأدلة التاريخية والفنية المتقدمة اعلاه .

٢ـ النثر في عهد الخلافة (٣٠٠-٤٠٠هـ): قطع النثر الفني رحلة طويلة فلا بد أن يختلف عما كان عليه ، فقد كثر الكتاب في هذا الميدان . فيما سجله ابن عذاري في حديثه عن الخليفتين الناصر والمستنصر ومن هؤلاء الكتاب : ابن المنذر ، وابن جهور ، وابن بسيل وابن فطيس ، و ابن بدر والزجالي، والمصحفي، ومن واعتمد على المحسنات البديعية وكثرت فيه الالقاب والجمل الدعاية والاعتراضية واكثروا من الاقتباس من القرآن الكريم والأمثال . ومما يندرج في النثر السلطاني منشور النساء : مزنة كاتبة الخليفة الناصر ، ولبنى كاتبة الخليفة المستنصر وليس غريباً أن يختلف النثر الفني في خصائصه العامة فقد بدأ متأثرا" من حيث الاستطراد بالمذهب الجاحظي الخلافة الذي اصدره عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٦هـ بصيغة رسالة وجهها الى صاحب الصلاة بقرطبة بان تكون الخطبة له يوم الجمعة ، والنص كما يأتي:بسم الله الرحمن الرحيم - اما بعد فإن احق من استوفى حقه، واجدر من استكمل حظه ولبس من كرامة الله ما البسه للذي فضلنا للذي به واظهر اثرتنا فيه . ورفع سلطاننا اليه ويسر على أيدينا ادراكه وسهل بدولتنا طرقه وللذي اشاد في الأفاق من ذكرنا وعلو أمرنا واعلن من رجاء العالمين بنا. واعاد من انحرافهم الينا بدولتنا والحمد لله ولي النعمة والانعام بما انعم به....))

ومن الكتاب والخطباء المشهورين في هذا العصر قاضي القضاة منذر بن سعيد البلوطي وكانت له مكانته عند الخليفة عبد الرحمن الناصر حتى انتقده في أسرافه تشييد قصر الزهراء ((إذ عرض به اول خطبة حضرها خليفة بعد أن شغل عن حضور صلاة الجمعة ثلاث مرات فاستهل خطبته بقوله تعالى ((اتبنون بكل ريع آية تحبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون..... فغضب الناصر وشرع لا يصلي ورائه ، وحين طلب منه ابنه الحكم ان يعزله عن الصلاة قال: ((أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه - لا أم لك - يُعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير القصد؟ وهذا ما لا يكون ، واني لأستحي من الله الا اجعل بيني وبينه فيصلاة الجمعة شفيعاً مثل منذر في ورعه وصدقه ، ولكنه احرجني فأقسمت ولوددت ان اجد سبيلاً إلى كفارة يميني بملكي ، بل يصلي بالناس حياته وحياتنا، إن شاء الله تعالى - فما اظننا نعاض عنه ابدا)). خطبة منذر بن سعيد البلوطي الجمعة وفدت سفارة من القسطنطينية سنة ٣٣٦ هـ فاحتفى الناصر لقدومهم في يوم مشهود . واقيم احتفال باظهار معالم اتجاه والسلطان

وتبادلوا فيها الهدايا ثم ان الناصر جلس الى قصر قرطبة لدخول وفود الروم عليه . وكان المجلس عامراً بالحاضرين. ثم : أحب الناصر أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه لتذكر عظيم سلطانه وتولي ابنه الحكم، فاوعز إلى الفقيه محمد بن عبد البر القرطبي باعداد خطبة بليغة تناسب ذلك المقام، وكان من الخطباء البلغاء ، فلما قام يحاول التكلم هاله وبهره هول المقام وابهة الخلافة فلم يهتد إلى لفظة بل غشى عليه وسقط إلى الأرض. فقيل لابي علي القالي البغدادي - وهو ضيف الخليفة الوافد من العراق - وبحر اللغة ، قم فارقع هذا الوهي. قام فالحمد الله واثنى عليه، وصلى على نبيه ثم القطع الكلام فوقف ساكتاً مفكراً في كلام يدخل به الى ما يريده فلم يستطع فلما راى منذر بن سعيد ذلك قام من ذاته فوصل افتتاح أبي علي القالي بكلام يسحه سحا كانما كان يحفظه قبل ذلك بمدة فقال:اما بعد حمد الله والثناء عليه، والتعداد لالائه ، والشكر لنعمائه ، والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه، فإن لكل حادثة مقاماً ولكل مقام مقالاً وليس بعد الحق الا الضلال وأني قد قمت في مقام كريم بين يدي ملك عظيم فأصغوا إلى معشر الملا باسماعكم، والقفوا عني بأفئدتكم، أن من الحق ان يقال للمحق صدقت . وللمبطل كذبت... ثم بعد حديث طويل ختم خطبته يقوله : أقول قولي هذا واختم بالحمد مستغفراً الله الغفور الرحيم فهو خير الغافرين)). ومن هنا فإن وصف القدماء اياه بأنه كان خطيباً مصقعاً يتحقق مع ما رأينا من بلاغة خطبته وبراعته فيها. واما خصائص الخطبة فهي تعرب عن نفسها بوضوح ١- بدأت الخطبة بتقاليد الخطب الاسلامية بالحمد والثناء على الله سبحانه وتعالى والصلاة والسلام على رسوله الكريم ثم ختمت بما بدات به اشادت بمقام خليفة المسلمين الناصر وتمجيد مقامه مع ذكر ما تحقق في عصره من استقرار وامان جاعت لغتها سهلة مرسلة تقوم على أساس الجمل القصيرة لا العبارة الموجزة وهي لا تعتمد التزويق اللفظي المتكلف تعتمد على بعض فنون البديع غير المتكلف مثل الجناس والطباق والاقتباس من القرآن الكريم اقتباسا مباشرا واشاريا. فمن المباشر قوله تعالى (ليقضي الله امرأ كان مفعولا) ومن الاشاري: (كان باسكم بينكم وشفا صدوركم). اعتمدت الخطبة على أساليب مختلفة مثل الترادف ، والمعاني بشكل عام كانت واضحة ليس فيها تعقيدا أو غموض وتنوعت بين جمل خبرية وانشائية كالأمر والنهي والاستفهام والنداء والتوكيد.

النثر في العهد الأموي

العقد الفريد:

من الكتب المهمة في المكتبة العربية انتهى ابن عبد ربه من تأليفه سنة ٣٢٢هـ قبل وفاته بستة اعوام وقد اختلف في تسمية الكتاب فرأى بعض الباحثين ان اسمه (العقد) وان لفظة (الفريد) اضيفت اليه وان الابشيهي اضافها في مقدمة كتابه المستطرف من كل فن مستظرب ولكن ابن عبد ربه يزيل هذا الابهام ويحقق لنا اسم الكتاب في مقدمته اذ يقول : (وسميته كتاب العقد الفريد لما فيه من مختلف جواهر الكلام مع دقت السلك و حسن النظام) ومن عنوان الكتاب نعلم ان المؤلف تصور كتابه في صورة عقد حباته فريدة وثمنية ولذلك جعل ابواب كتابه خمسة وعشرين باب كل باب باسم جوهرة واختار اثنتى عشرة جوهرة لأبواب الكتاب وقابلها باثنتي عشرة أخرى ثم جعل الواسطة الخامسة والعشرين وقد جعل كل كتاب ((باب)) منها جزئين فاجتمع منها خمسون جزءا

في خمسة وعشرين كتابا وبدأها باللؤلؤة في السلطان وختمها باللؤلؤة في الفكاهات ومنهجه في مادة الكتاب انه يختار وينقي الاخبار التي هي جديرة بالجمع ثم ينسقها وفق الموضوعات المتشابهة ولم يحصرها قي صنف واحد وحذف الاسانيد ورواة من الاخبار التي يريدها على سبيل الايجاز ودفع السأم عن القارئ . اما مصادره فهي مصادر الثقافة العربية ومنها: عيون الاخبار لابن قتيبة والبيان والتبيين والبخلاء والحيوان للجاحظ والكامل للمبرد وطبقات الشعراء لابن سلام والسيرة لابن هشام وكليلة ودمنا لابن مقفع ودواوين شعراء الجاهلية والاسلام. وقد ابدا النقاد القدماء والمحدثون اراء فيه ، فصاحب بن عباد سمع بكتاب العقد الفريد وحرص عليه حتى حصل عنده ولما تأمله قال : (هذه بضاعتنا ردت الينا ، ظننت ان هذا الكتاب يشتمل على شيئ من اخبار بلادهم وانما هو مشتمل على اخبار بلادنا لا حاجة لنا فيه فرده) ونقده الشاعر الاندلسي محمد بن يحيى القلفاط وسمى الكتاب باسم حبل الثوم وتشويها وتحقيرا وعاب عليه ابن الربيب القيرواني بقوله(على انه يلحقه فيه بعض اللوم ولا سيما اذ لم يجعل فضائل بلده واسطة عقده) والذي نراه ان الهدف الذي دعى المؤلف الى تأليفه هو : ١- تعريف أهل الأندلس بالمشرق ونقل الاخبار من مصادرهم لان الأندلسيين معجبين بكل ما هو المشرقي. ٢- تعريف اهل المشرق باهل الاندلس وعرض جانب جانب ولو قليل من اشعارهم واخبارهم. ٣- تقوية ثقة اهل الاندلس بانفسهم وبانهم قادرون على انتاج ادب يضاهي ادب المشرق. ولذلك وصف الكتاب بانه عظيم القيمة من النواحي التاريخية والادبية والعلمية وهو ذخيرة ادبية او موسوعة ثقافية عربية عامة.